﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

كلية التربية
المجلة التربوية
* **

المواطنة

إعداد

أ.د/ محمد سعيد أحمد زيدان

أستاذ المناهج وطرق تدريس الفلسفة

كلية التربية – جامعة حلوان

DOI: 10.12816/EDUSOHAG. 2020. 71911

المجلة التربوية. العدد الثانى والسبعون . أبريل ٢٠٢٠م

Print:(ISSN 1687-2649) Online:(ISSN 2536-9091)

باسمك اللهم نبدأ راجين منك السداد والتوفيق...

"تحتل فكرة المواطنة في الفكر السياسي الحديث مكانة مركزية، حيث إن إحساس الفرد بالمواطنة والولاء والانتماء لوطنه مرتبطة بحصوله على حقوقه كاملة في ظل النظام السياسي القائم ملكيًا كان أو جمهوريًا، وبقدر ما يتمتع به الفرد من حقوق بقدر ما يشعر بالاستقرار والأمان، ومن ثم بالمواطنة"(١).

موضوع (المواطنة) من الموضوعات ذات الأهمية القصوى خصوصًا في العصر الراهن الذي يغلب عليه الاتجاه نحو النفعية وتغليب النوازع المادية على النوازع الروحية.

واقع حياتنا الاجتماعية عبر عنه شاعر العربية الخالد نزار قباني في كلماته السهلة البليغة: خلاصة القضية.. توجز في عبارة.. لقد لبسنا قشرة الحضارة.. والروح جاهلية.

ويكفي أن يتجول الإنسان لبضع دقائق في الشارع المصري لكي يتكشف له إلى أي حد تدهورت القيم وغابت التقاليد، وأصبحنا أمام تجمع بشري مختلف يحتاج منا إلى دراسة وتحليل؛ فقد غاب العقل.. تراجع المنطق.. سكت الكلام.. تقطع الحوار.. ساد الفساد وسادت معه لغة البلطجة وأعمال الشغب والعنف(٢).

تأمل بعض الأمثال الشعبية التي تصور ذلك: أنا ومن بعد الطوفان.. اللي تغلب به العب به.. الدنيا مصالح.. على قد فلوسهم.. المال أعز من الرجال.. الفلوس على كل شيء تدوس، أبويه وأبوك القرش.. الراجل ما يعيبه إلا جيبه.. اللي معاه قرش يساوي قرش.. بمالي أعمل ما بدالي.. هز جيبك يخفي عيبك.. البرطيل شيخ كبير.. ارشوا تشفوا..

"لقد أوصانا الأنبياء والفلاسفة، بل العلماء أيضًا، ألا نسقط القيم (قيم المواطنة) من أمور تربيتنا وتنميتنا، إلا أننا تمادينا في إغفالها حتى أصبحت حالنا على ما هي عليه الآن"(٣).

"ولن تسلس لنا الحياة في عصر المعلومات، الحافل بالاحتمالات والتناقضات، دون هذا الزاد الروحي من المثل والقيم"(٤).

ويظل السؤال قائمًا: ألا من وقفة تأمل لأسلوب تفكيرنا الاجتماعي؟!! تلك ضرورة تفرضها حتمية السفر إلى المستقبل، وإلا تخلفنا عن قطار مواكبة العصر ومعايشته والمشاركة فيه، ووقفنا على رصيف الانتظار نتسول الاحترام.

"إن من يقرأ صفحات الحوادث يعرف أننا في حاجة ماسة إلى ثورة تربوية شاملة تعيد إرساء القيم (قيم المواطنة). وجلي أنه لا وجود لحضارة في أمة من الأمم ما لم تكن لها ذخيرة وافية من القيم؛ فالمقياس في حضارة الأمة ليس في عدد أفرادها، ولا في مساحة أرضها، وإنما بمقدار شيوع القيم بين أبنائها، ومدى ممارستهم الفعلية لها"(٥).

وقد تثير هذه الدعوة – أي العودة إلى قيم المواطنة التي هجرناها – الدهشة والحيرة معًا.. فهل هذه الكلمة الصغيرة المكونة من ثلاثة أحرف (قيم) هي الحل السحري لكل الصراعات الدامية التي شهدتها البشرية قديمًا وحديثًا؟!!

إن الذين يؤمنون بالدور التربوي لبناء جيل المستقبل يدركون حقًا أهمية مثل هذا الموضوع، وإذا كنا صادقين حقًا في محاولة السعي لاستعادة قيمنا المنقرضة؛ فإن السؤال الذي يواجهنا هو: من أين نبدأ؟

"ولا شك في أن تراث فكرنا الديني والفلسفي، يمكن أن يكون زادًا لا غنى عنه لتجديد نظام قيمنا تلبية لمطالب عصر المعلومات"(٦).

وهنا أتساءل: لماذا نلهث وراء الفكر الغربي، بينما تراثنا الفكري يتضمن قيم المواطنة؟! نحن لا نعارض الأخذ من الفكر الغربي.. ولكن ما المانع من تأصيل هذه القيم من واقع تراثنا الفكري؟!

إن ظهور الإسلام وإرسائه العديد من المبادئ الإنسانية التي تجسد المساواة في الواجبات والحقوق بين جميع البشر، قد أسهم في تأصيل مفهوم المواطنة الذي اتضح في الدولة الإسلامية الأولى التي أسسها الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة من خلال ما يعرف باسم "صحيفة المدينة" التي تلخص – بأسلوب أجزت فأسهبت – أهم مبادئ المواطنة.. يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣)، ويقول الرسول (ﷺ): "الناس سواسية كأسنان المشط؛ لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى".

لقد جاءت أحكام الشريعة الغراء بالمساواة بين البشر لأول مرة، بين الغني والفقير، والأسود والأبيض، والعربي والعجمي كذلك أرست قواعد العدالة في الواجبات والحقوق.

وهنا لابد من وقفة تأمل، ونتساءل: هل من المنطقي أن تتقدم المطالبة بالحقوق على أداء الواجبات؟!!

إن شيوع قيم المواطنة بين أفراد مجتمع ما، يعني تقدم هذا المجتمع ورقيه، إنها ضرورة لكل مواطن في عالمنا الحديث؛ فهي التي تنشئ الفرد مواطنًا صالحًا، يعيش لمجتمعه، ويتسق معه، ويعمل لخدمة أهدافه، ومثله، ومبادئه.

وإذا كانت البلاد المتقدمة قد أدركت الحاجة إلى تنمية قيم المواطنة؛ فإن الدول النامية التي تعج بالمشكلات في أشد الحاجة إلى تسليح ناشئتها بهذه القيم.

ولعل من الخير أن نقر بأهمية قيم المواطنة وضرورة تنميتها، فنقول: إن الحياة الاجتماعية المعاصرة، إذ تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم، تزداد الحاجة إلى تنمية قيم المواطنة؛ فكم من الأخطاء وصور الانحراف التي تحدث في الغالب إنما هي نتيجة لغياب هذه القيم.. وصدق من قال: "إن المواطنة.. سفينة نوح في عصر الطوفان".

نحن ندعو إلى تنمية قيم المواطنة لدى الأبناء؛ لتسليحهم بما يمكنهم من مواجهة مشكلات الحياة، وحتى نسهم بالفعل في تربية مواطن على وعي بما عليه من واجبات وما له من حقوق، للدخول في هذا العصر والإسهام في تقدم الواقع والمجتمع والحياة.

وتتمثل الأهمية التربوية لتنمية قيم المواطنة، خاصة إذا وضعنا في المحل الأول من الاعتبار ما يلي:

١- إن تنمية قيم المواطنة ضرورة تربوية حتمية، حتى لا يعيش الفرد تائهًا في مجتمع اختلط فيه "الحابل بالنابل"، وحتى لا يغترب الأبناء، الذين هم شباب المستقبل ورجال الغد، ويتيهون في شارع الحياة، يجب أن ننمي لديهم قيم المواطنة.

٢- إن المواطنة تنتج عقولاً ناضجة، تتعامل بسماحة وسعة أفق، وشخصيات مستقلة تتسم بالشجاعة والصراحة والصدق والثقة بالنفس والشعور بالمسئولية، وبدون المواطنة يوجد التعصب، ويتجه الإنسان إلى العنف والإرهاب والتخريب والتدمير، أو يركن إلى السلبية والاستكانة.

٣- إن تنمية قيم المواطنة يسهم في بناء مواطن مصري، يعتز بمصر أرضًا وشعبًا، حضارة وفكرًا.

وحسبي أن أشير إلى الموقف التالي.. والذي يحمل عنوان:

الرسول قدوة في حب الوطن

هاجر الرسول ( ) مع صديقه أبي بكر ( ) عندما أذن لهما الله بالهجرة، فقال الرسول ( ) عندما أوشكت مشارف مكة أن تغيب عن نظره:

"والله إنك لأحب البلاد إلى نفسي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت".. إنه حب الوطن الذي ضرب لنا الرسول ( ) به أروع مثال نقتدي به.

وهنا نتساءل:

- لماذا يُعد الانتماء والولاء وحب الوطن فريضة دينية؟[٧]

نحن أحوج ما نكون إلى تنمية قيم المواطنة؛ لأنها تصنع التقدم، إن تنمية هذه القيم هي السبيل السريع للتقدم.

إنني أعتقد أن تنمية المواطنة لدى الأبناء ضرورة؛ إعدادًا لهم لدخول جامعة الحياة.. تأمل هذا الموقف الطريف الذي يجسد الأهمية التربوية لتنمية الوعي بقيم المواطنة لدى الأبناء، والذي يحمل عنوان:

لا حاجة للقاضي!

كان عمر بن الخطاب (ﷺ) قاضيًا على المدينة المنورة في عهد أبي بكر الصديق (ﷺ)، وقد طلب من أبي بكر إعفاءه من القضاء.

فقال أبو بكر: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟

قال: لا يا خليفة رسول الله، ولكن ليس بي حاجة عند قوم مؤمنين، عرف كل منهم ما له من حق فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يقصر في أدائه، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقدوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج ساعدوه، وإذا أصيب واسوه، دينهم النصيحة، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيم يختصمون؟![٨]

ملحوظة: تأمل حياة الناس اليومية الجارية، حيث تتردد هذه المقولة كثيرًا: (معايا، وليك، وعلىّ، ومِشْ مديكْ).

وهنا نتساءل: يُلزم المجتمع المصري الفرد بالطاعة في حين يطالب الفرد المجتمع بحقه في الاحترام.. هل من سبيل لحل هذه المسألة؟

إنه دون تنمية قيم المواطنة؛ فإن إدراك الأبناء لقضايا التطرف والإرهاب والإدمان والبيئة.. وغيرها سيكون إدراكًا قاصرًا.. ويجب علينا بعد ذلك، أن نبحث عن الأسباب.

وهنا أسأل سؤالاً – يُعد سؤال الأسئلة – وسؤالي في منتهى الوضوح: عن أي مواطن نبحث، هل نريد مواطنًا مشاركًا مبدعًا مبتكرًا يعيش العصر ويتوحد مع الزمن ومعطياته، أم نريد مواطنًا متلقيًا مغتربًا عن العصر ذا عقلية مهيئة لمجافاة الزمن ومناصبته العداء؟

ولعل الشاعر معروف الرصافي قد أصاب بحسّه المرهف قلب الحقيقة حين قال:

إذا ارتوت البلاد بفيض علم فعاجز أهلها يمسي قديرًا

إننا نحلم بدولة المواطنة الحقيقية، التي تتمتع بالعدل الحقيقي، وبالمساواة الحقيقية. هذا ليس مطلبًا عسيرًا، وليس مطلبًا جديدًا في الإسلام صنعه مبدأ "أنتم أعلم بشئون دنياكم"،

ولكنه مطلب متجذر في الإسلام منذ أعلن النبي الكريم (ﷺ) صيحته: "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"، ومنذ أن وقف (ﷺ) كاشفًا عن ظهره قائلاً: "ومن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليجلده"، ومنذ أن قام (ﷺ) واقفًا لجنازة يهودي فقالوا: يا رسول الله، إنما جنازة يهودي فقال (ﷺ): "أليست نفسًا"؟.

إنها دولة المواطنة التي يأمن فيها المواطن على نفسه وماله وعرضه، فينتقل من مرحلة الاطمئنان إلى مرحلة الولاء والانتماء ومنها إلى مرحلة الذوبان في عشق الوطن والسهر على حمايته ورفاهيته وتقدمه[٩].

إن هذا المقال يُعد بمثابة دعوة لاستعادة قيم المواطنة المنقرضة، ونأمل أن يكون دعوة إلى حوار تأخر كثيرًا، وآن له أن يبدأ؛ لكي نمارس هذه القيم (فكرًا وسلوكًا) من أجل مستقبل أفضل لمصرنا العزيزة وأمتنا العربية والإسلامية.

وفي الختام خير الكلام سائلاً من لا يغفل ولا ينام {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} (البقرة: ٢٨٦) صدق الله العظيم.

الهوامش

(١) محمد ممدوح: المواطنة في الإسلام.. المعضلات والإشكالات في واقعنا المعاصر. تصدير مصطفى النشار.. تقديم: محمد زيدان. (القاهرة: روابط للنشر وتقنية المعلومات، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م) من تصدير مصطفى النشار ص١١.

(٢) لمزيد من التفاصيل.. انظر على وجه الخصوص:

- عزة عزت: التحولات في الشخصية المصرية (القاهرة: دار الهلال، كتاب الهلال، العدد ٥٩٨، أكتوبر ٢٠٠٠م).

(٣) نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات. (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، العدد ٢٦٥، يناير ٢٠٠١م) ص ص ٤٦٨، ٤٦٩.

(٤) المرجع السابق: ص ص ٤٠٣، ٤٠٤.

(٥) محمد سعيد أحمد زيدان: القيم الفلسفية في الأمثال الشعبية (القاهرة: سفير للإعلام والنشر، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م) ص١٩.

(٦) نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات (مرجع سابق) ص٤٧٣.

(٧) محمد سعيد أحمد زيدان: الفلسفة والحياة اليومية.. المواقف الحياتية مدخل لتدريس المواد الفلسفية. (القاهرة: دار مصر المحروسة، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م) ص٧٣.

(٨) محمد الأباصيري (محرر): الوعي الإسلامي (الكويت: السنة الثامنة عشر، العدد ٢١٥، ذو القعدة ١٤٠٢هـ، سبتمبر ١٩٨٢م)، ص٦٩.

(٩) محمد ممدوح: المواطنة في الإسلام.. المعضلات والإشكالات في واقعنا المعاصر. تصدير مصطفى النشار.. تقديم محمد زيدان. (مرجع سابق) ص ص ٣٤، ٣٥.